# أخلاق الشباب في شعر مفدي زكريا

أ.د/ أمينة طيبي
جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس-(الجزائر)

**ملخص:**

الشعر صوت الشعوب ومرآة حياتها، من خلاله استقرأنا الأحداث والعادات والثقافات القديمة دون أن نلامسها، الشعر صوت الأمة لا الشاعر وبيانها، الشعر دستور مشرِّع وتنبيهات واعظ، وشعر مفدي زكريا جمع كل تلك المظاهر فكان ثوريا هائجا محرضا مؤلِّباً إبان الثورة، وكان موجها محذرا واعظا مرشدا بعدها حتى تُبنى الجزائر المستقلة على أساس متين من أجل بداية سليمة آمنة متغزلا من أجل ذلك بالشباب الجزائري.

***Abstract :***

*Poetry is the voice of the peoples and the mirror of their existence since it reflect saccurately events, customs and traditions of civilizations .Poetryis the voice of the Nation, not the poet's rhetoric ; it is also the legislator's constitution and the warning of a preacher.*

*Moufdi Zakaria's poetry meets all these aspects. Indeed, during the Independence War he was an ardent revolutionary and a rally ingperson who knew how to energise people. At the Independence he became a guide and a mentor ; his aspiration was to build a free and stable Algeria basedon solid foundations relying mainlyon the Algerian youth.*

**المقال:**

النتاج الأدبي الجزائري زاخر بالشعر الثوري، حتى إننا نكاد نصنفه في مجمله إما ثوريا أو وطنيا، ويعود ذلك لأصالة الدم القومي الذي يسري في عروق أبناء الوطن، أو ربما يرجع ذلك لفظاعة المأساة التي عاشتها الجزائر حجزائر المستقل قا من استبداد وظلم وقسوة استعمار، حيث ظهر أدب جزائري ملتزم بقضايا الوطن والأمة العربية الإسلامية، وبكل وضوح وبساطة عن نفسية الشعب وآلامه وطموحه، فكان أدبا قويا في مضمونه الثوري، مؤرخا للأحداث في مساراتها التاريخية والفنية، مؤديا بذلك وظيفة التوصيل من جهة والتغير من جهة "ففي السلم يتفرغ الأدباء للفن، وفي الحرب يتفرغ الأدب نفسه للحرب"[1].

فإذا ذكرت الثورة في جانبها الأدبي الشعري ذكر رجالها، ولا يمكن أبدا أن نعرج إلا عليه، على شاعر سخر قلمه لخدمة وطنه، وقضايا أمته، فكانت الكلمة عنده رصاصة والحبر دما"، انه



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واحد من أسماء عديدة قدمت ضريبة العرق والدم والحبر لنصرة ورفعة الجزائر"[2]، شاعر دوى صوته في أرجاء الوطن.. امتزج بدماء الثوار، وترسخ كالتاريخ بماضينا ليظل الحاضر المحمل بالماضي.. وسيظل كذلك، انه صوت شاعر المجد والثورة "مفدي زكريا".

إنه الشاعر المتطلع إلى مستقبل تنتفي به ظلمات ومظالم عانى منها الشعب الجزائري فقبلوها ظنا بأنها القدر المحتوم، انه الرفض للواقع، انه التعبير الدقيق للشعور بالأسى على شعبه، شاعر جدير بالتقدير، أعطى فكان عطاؤه ثراء، وأثمر فكان قطافه يانعا، انه الشعار الذي لا تزال نغمة صوته تعشش في أسماعنا وأذهاننا وصوره الشعرية لا تزال تمتع بصائرنا، انه الشاعر المناضل الذي امتلك حقا زمام الكلمة السلاح فأشهرها في وجه العدو غير مبال بقوته وبسلطته، وأرخ للثورة فأبدع في ذلك.

ومفدي في تغنيه بالجزائر، وافتتانه بها يسمو سموا فريدا يتخطى الجمال الحسي في الطبيعة، تخطيه الجلال الحسي في البطولة إلى صور خيالية مجنحة، وإطلالات علوية رائعة لا تخطئها المبالغة أحيانا، ولكنها مبالغة محتسبة، تجد من المواقف البطولية شفيعا ومن الثورة الصاعدة بالتغلغل في النفوس.

واكب مفدي زكريا هذه الثورة بجميع انتصاراتها وبطولاتها وهذا ما ظهر جليا في كتاباته الأدبية فلم يكن لسانها الناطق فحسب، بل إن فضله يكمن أيضا في حدسه الوطني الذي بشر بالثورة على الخاطرة والهمس.

مفدي زكريا كغيره من الشعراء الذين تميزوا بالإحساس المرهف والشفافية التي جعلتهم يهتزون لكل المواقف ويتأثرون بكل الأزمات التي يمر بها الإنسان العربي، ويطربون لكل خطوة يخطوها في سبيل الوحدة العربية، أما ما تميز به وتفرد به عن غيره فهو حبه للانتصار في كل المواقف فقد كان طموحا لا يخضع للذل ولا يحب الدنيء من الأشياء.

والمعروف عن مفدي زكريا انه كثيرا ما كان يرتجل بعض الأبيات الشعرية تحت ضغط الحدث أو المناسبة؟، وهناك عدد من القصائد نظمها في ليلة واحدة أو أثناء جلسة واحدة، فهو إذن من القلائل الذين يأتيهم الشعر طواعية وكيف لا وهو القائل:" لست ممن يفتش عن الشعر، بل الشعر هو الذي يفتش عني"[3]، تشبع شاعر الجزائر بثقافة إسلامية غزيرة*، صقلته بمكارم الأخلاق، وغذت روحه وعقله، أثنى كثيرا على الأخلاق، وحذر من التخلي عنها، كونها العمود الفقري لنجاح وتكوين الأمم، وهي طريق لكسب المعالي وتحقيق النجاح في الحياة وبناء الأمم، يقول[4]:



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

**هي الأخلاق في الدنيا دليل ***إلى درب العلا يعدوا الشباب**

**هي الأخلاق معجزة البرايا***على هاماتها السحابا**

فكما لا يخفى على أحد، أن المستعمر عمل على تجريد الشعب من عقيدته، حيث انشأ معاهد خاصة لتكوين رجال جندهم للطعن في الإسلام، ثم دعوته للاذ ماج من اجل القضاء على التراث القومي والعقائدي، وعوامل أخرى أثرت في ضعف النفوس فطغت عليها الأوهام، كما طغت الخرافات والأباطيل على الدين، حتى إن الكاردينال (لافيجري) قد صرح بتخليص الشعب وتحريره من قرآنه، والاعتناء بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم[5] ولعلهم أفلحوا في ذلك.

وكلما كثر البكاء والنحيب على الواقع، كثر الحديث عن الفضيلة التي ديست والأخلاق التي ذهبت، وهذه هي السمة العامة التي اشترك فيها جميع الشعراء، كونهم يمثلون مرحلة واحدة تقاربت فيها نظرتهم للأمور واتحدت رؤيتهم الواقع، كما جاء في قصيدة (**مصرع الفضيلة**) لفتى الوادي مفدي زكرياء حيث يقول[6]:

**طبائعنا صالحات جليلــة ***تعاف انحلال النفوس الذليلة**

**وتأبى رجولتنا الابتــذا *** ل وأحلاسه، والشعور الطويلة.**

**تخنث هذا الزمـان ودبَّت ***خنافيس هبي، يشيع الرذيلة؟**

**ونافس آدم حــواءه *** دلالا، وغنجا، وذبح فضيلة**

**وجرت ذيول الطواويس هذي السراويل، وهي القصار الطويـلة**

**ولولا النهود لما كنـت*** تفرق بين جميل وجميلــة؟**

لعمري إن الصورة التي رسمها مفدي زكريا في هذه الأبيات تنطق عن واقع المجتمع اليوم الذي لا تستطيع أن تفرق فيه بين الرجل والمرأة، فالسراويل للاثنين، والشعر الطويل للاثنين، ولا فرق بينهما سوى النهود.

كان إيمان الشاعر بشباب الجزائر، إيمانا قويا، حيث رأى فيه المستقبل، والمجد، والبناء، مما دفعه للاهتمام بهذه الشريحة، يقول[7]:

**بنات المجد لا تأكلوا الفوضى***شباب عقله أضحى يبايـا**

**خذوا بيـد الشباب وجنبوه***مذاهب شوهت فيه الإهابا**



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالأمة بشبابها إذا صلحوا صلحت، وإذا اجتهدوا علت وارتفعت، وإذا ابتكروا وأنتجوا تطورت وارتقت، أما إذا فسدوا فعليها ألف سلام، لذلك عصر حكيمنا ومربينا مظاهر الانحلال في أبيات من إلياذته لتكون الناقوس الذي ينبه الشباب، والعبرة التي يتحاشاها الجيل اللاحق.

يذهب الشاعر إلى أن الأمة التي ينتشر فيها الشذوذ، ويكثر "الحشيش"، وتعم دور الفساد والبغاء غادية إلى الدمار، فالزوال، فيقول[8]:

**وشاع الشذوذ وذاع الحشيش وأصبح للموبقات وسيلة**

**وتقرف أنافنا القاذورات ***فلم تجد في صرفها أي حيلة**

**وأرض الجزائر أرض الفحول فأين الشهامة؟ أين الرجولة؟**

**ومن لم يصن حرمات البلاد، ويذر النفايات.. قد خان جيله.**

حيث يصف تلك الآفات الفتاكة بالنفايات التي يجب أن ترمى بعيدا، وتركها هو خيانة عظمى للوطن، فمفدي حذَّر من ظاهرة وجدت لها طريقا في بلد مسلم، تفاقمت بعده إلى الحدِّ الذي يستحيل السيطرة عليها كما هي عليه اليوم.

ثم إن الشاعر يغوص في المجتمع بحملته على الفساد، فتصور الواقع المرير الذي آلت إليه الأسرة الجزائرية وهي المسلمة العربية عندما شاع الزواج بالأجنبيات كوجه من وجوه التحضر فيقول[9]:

**وبعض تزوج بالأجنبية ***وقال: مثقفة حضرية**

**تراقصني وتراقص هذا*** وذاك .. ويعبث عن حسن نية**

**وتختال بالميني جوب دلالا *** وتستعرض المغريات الخفية**

**وتتركني لا جناح عليها *** وتذهب للسهرة النرجسية**

**وتقضي الليالي خارج بيتي *** وذلك من نغم المدينة**

**وإن ولدت.. لست ادري لمن؟ ***كفى أنه من بني البشرية**

**أناديه صالح عند الصبا***ح ،وأدعوه موريس عند العشية**

لما كانت المرأة عماد المجتمع وأساس البناء الصحيح، نجده يركز كثيرا عليها في أشعاره بعد الاستقلال، وكأني به يقول تخيروا لأبنائكم أمهاتهم، إنه الصوت الإصلاحي الذي قالها صراحة آنذاك، ووصف حال الجزائريين ضعفاء النفوس الذين راحوا يتزوجون بالأجنبيات، وقد انتزعوا الرجولة، حين هوت القيم وفرّت النخوة، وطارت الحشمة، وراحت المرأة تميع وتميل، و...:



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

**وتفاحة أخرجت آدمـا*** من الخلد، مذ لعنته السَّما**

**ولكن حواءنا بلعتـها ***وبالعلج أبدلت المسلما**

**ولم ترض بالفحل من قومها***فهامت بمن.."ما رمى إذا رمى"**

**فسحقا لبنت تزيف جيـلا***وتلعن فيها الدماء الدما**

ولا يكتفي الشّاعر بهذا التهكم، بل ينتقد أخلاقيات الشارع الجزائري فيصف الطبائع الغربية التي سلكت نفوس أبنائهم المريضة، وهذا ما مثله في قوله عن المستهترات[10]:

**ومنهن كالعنز بادي الرذيلة ***يدللن بالعار بين القبيلة**

**يشمرن ذيلا عن العورا *** ت، يثرن فضول النفوس الدخيلة**

**ويسلكن غير الطريق السو*** يِّ، كخابط ليل أضاع دليله**

**وفوق الطريق، وتحت الطريق يهمن كسكران ضل سبيله**

**خنافس، يكشفن ساقا كأ ***ن القيامة قامت لواد الفضيلة**

**جلابيبهن القصار الطوا *** ل، كأحلامهن القصار الطويلة**

**بصائرهن كأبصارهـن ***مرنّحة، خاسئات، كليلة**

**وأخلاقهن، كوجوههن ***بواسر، ممتقعات، عليلة**

**وأجسادهن قطاع غيار ***فكل القطاعات يكفي بديلة**

**إذا جف ماء الحياء بأنثى فلم لا تجف الطّباع الأصيلة**

لعمري ما أروع تلك الأبيات وما أقساها من ألفاظ وعبارت، لقد توجه إلى المرأة الجزائرية بلسان سليط رادع زاج (خنافس، أجسادهن قطع غيار، بصائر مرنّحة.....)، لأنها ركيزة المجتمع، وبصلاحها يولد جيل عالي الهمّة يعول عليه في عملية البناء والتشييد التي كان يحلم بها الشاعر، وهي رؤية مستقبلية طرحها الشاعر في تلك الأبيات لأننا بعد سنوات من نظمها نشعر أنه يخاطب المرأة اليوم، فبعد غياب الحياء استباحت المرأة كل المحظورات و بالتالي على الدنيا السلام.

على أن تهكمه هذا على العادات السيئة والمبتذلة والتي انطبعت على فئة من المستهترات لم يكن شاملا في نظره للمجتمع وأخلاقياته مستدركا من بقوا على الفضيلة وساروا على دربها، وهاهو يخاطب المرأة التي لا تزال محافظة على أصالتها وأخلاقها، تلك الملرأة التي تحسن تربية جيل البناء، فيقول[11]:

**وحاشاكِ، حاشاكِ بنت الأصالة***ومن شرفت جنسها ورجاله**



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

**وصان شبابكِ بنت الحلا***ل،كما صنتِ عرضك بين الحثاله**

**سلكت الطريق القويم المبين فجنبك العقل سبل الضلالة**

**وأضفى عليك جلال الحياء جمال الحياة، فصنتِ حلاله**

**وهالكِ من جنسك الابتذا***ل، فعفتِ حقارته وابتذاله**

**وناداكِ شعبك يوم التنا ***دي، فشرَّفتِ ثورته ونضاله**

**وكنتِ لحواء في الخالدا*** ت، مثالا فريدا عدِمنا مثاله**

**فمثلكِ من يصنع الجيل شهما*** ويرعى استقامته واعتداله**

يذهب الشاعر كما رأينا في كثير من أشعاره إلى الشباب الجزائري وكيف ينبغي أن تكون أخلاقه فيتجنب الكوارث التي نزلت عليه من حضارة الغرب، يقول[12]:

**أمانا، من الخطر الداهم ***ومن معول قاصف هادم**

**غزا المذهبيون عقل الشبا***ب، بمستورد آفن إثم**

**وزاغوا بهم دون إسلامهم ***إلى مذهب ليس بالسأَّلم**

**ودسوا شيوعية كالوباء، كما يصرف السم للطاعم**

**وقالوا التقدم شرع الحيا ***ة، وكم ركض الحلم بالنائم؟**

**وقالوا: الرجوع إلى الدين رجعي ***وان الحياة مع القائم**

**فضل الشباب البريء انخذا ***عا، برقطاء في جلدها الناعم**

**ولج مع الأرذلين انحرافا ***عن المبدأ الخالد الدائم**

**وبث أساتذة في الشبا *** ب، رواسب مستعمر غاشم**

**وقيل دكاترة عاملون *** فويل لمستهتر عالم ؟**

إشارة إلى ما يقوم به بعض الأساتذة المتعاونين من محاولة إغراء الشباب والتأثير فيه وتضليله بإيديولوجيات مستوردة. وهي ظاهرة استفحلت في أيامنا، فشهادة الدكتوراه لا تغوي الشاعر مادام حاملها خسيسا، أرقطا في جلد أفعى، وفي قوله: فويل لمستهتر عامل...إشارة إلى ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:"أخاف على أمتي من عالم جاهل.."ما يعزز تمسكه بتعاليم القرآن والسنة.

ثم إن الشاعر يشير في صرخة علنية إلى الأساتذة العاملين لا العلمين، لأن العلم يؤدب صاحب ويرفعه عن تلك الخروقات التي تقوم بها تلك الفئة من تشجيعها للشيوعية، وحث الطلبة



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آنذاك وإلى يومنا التمسك بها، بل إننا نلفى اليوم بعضهم يروج للعديد من الإدلوجيات الغربية بعيدا عن الشيوعية، بل وإجبار الطلبة على تبنيها*.

أما الأمة التي أصيب شبابها في أخلاقه، فما لها إلا أن تقيم مأتما وعويلا ولعل الشاعر في الأبيات التالية يصور ذلك بنوع من المبالغة والتخويف[13]:

**تفسخ هذا الشباب وماعا *** وخرَّب أخلاقه وتداعى**

**فويل الجزائر والمسلمين إذا دنس النشء هذي الطباعا**

**وكيف يسوس البلاد غبيٌّ *** بليد أضاع الصمير فضاعا**

**وكيف يـقوم بنيانه ***وتقويم أخلاقه، ما استطاعا؟؟**

**وكيف يصون الأصالة نشء ***وقد ساوموه عليها فباعا؟**

**وكيف ينير الطريق شباب ***قد طمس الرجس فيه الشعاعا**

**وكيف يداوي المريض صحيحا ***وفي قلبه مرض السلِّ شاعا؟**

إلى أن يقول:

**هو الخطر الجارف المستطير ***فإن تهملوه..الوداع... الوداعا**

لله درّك يا مفدي، ما تقوله في هذه الأبيات يتجاوز بناء الشعر من عروض وقافية، إلى صورة إيمانية قد يعتقد الرجل بالغ فيها آنذاك، لكنه الحال نفسه اليوم، فكما تكونو يولى عليكم؟؟؟ في إشارة إلى أساس البناء، الرئيس والشباب، إذا حكما رجل غبي فعلى البلاد السلام، وإذا كان الشباب معلولا بالرجس فالخراب الخراب...

وكأني بالبلاد دون شبابها أمام رجل أعرج لا يستطيع السير برجل واحدة، لكن ماذا كان يفعل شباب ذالك الجيل حتى دفع مفدي إلى قول ما يلي[14]:

**ومستهترون، أضاعوا الثنايا*** وشاع تنكرهم للسَّجايا**

**وقالوا: التقدم خلع العذا***ر، وهتك العفاف، ونشر الخطايا**

**وجدل الشعور، ولبس الحلى، وحمل القلائد مثل الصبـايا**

**ويفتخرون بشرب الخمو***ر، وفي الكأس ترسب كل البلايا**

هذا ما كان إذن يقوم به شباب ذاك الجيل، وقد زاد عليه شباب اليوم ما يندي الجبين، من شعر منكوش كالديك، وسروال طوله شبريه، عاري الساق والردفين...ولاحول ولاقوة إلاَّ بالله.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يذهب الشاعر إلى الشباب المتعلم فيحذره من الأفكار والإيديولوجيات الغربية التي تهدم عقيدته وتزعزع أحلامه- وهي الفكرة التي أشرنا إليها سابقا- فيقول[15]:

**بناة الجزائر صونوا الشبـابا ***ولا تأمنوا في الشباب الذئابا**

**ولا تهملـوا أمر طلابنا ***فقد أصبح العقل فيهم يبابا**

**فكم شوه المسخ فيهم عقولا ***وكم أمعن المسخ فيهم خرابا**

**وحرف من زاغ إسلامـهم ***وأفقدهم وعيهم والصَّوابا**

**وأصبح تفكيرهـم قرزميا ***دخيـلا، وإيمانهم مستـرابا**

وهو يقصد بالمسخ هنا بعض أولائك الدكاترة الذين تحدث عنهم في الأبيات السابقة، الذين يعمدون إلى أصحاب النفوس الضعيفة فيجدونهم أرضية خصبة لزرع سمومهم، من معتقدات وإديولوجيات لا تمس للإسلام بصلة، لأن حامليها هو عيون الاستعمار الباقية كما يصفهم[15]:

**فويل لطلاب من شيوخ***توافه، لا يعلمون الكتابا**

**ومرتزقين بأفكارهـم***صنائع..لا يقرؤون الحسابا**

**ولا زال فينا...لمستعمرينا***عيون..؟وإن أسلمونا الترابا**

ثم يشخص الشاعر بعد هذا مرضا اجتماعيا خطيرا أصاب الأسر الجزائرية يتمثل في عجز الشباب عن الزواج لغلاء المهور مما دفعه إلى الزواج بغير المسلمة، يقول[16]:

**وأجلى الشباب غلاء المهور *** فلاذ – على حبه – بالنفور**

**وفضَّل ماري على مريم *** وريتا على زينب والزهور**

**وطار مع الرِّيح من وكره *** وأفلت من ظلمات القبور**

**وتُحلَب في الحي كالبقرا ***ت، فان غاض منها الحليب تبور**

**وبالمال تقذف طوعاً وكرهاً *** بأحضان من نفضته الدهور**

**فويل الجزائر جيلا فجيلا *** إذا لم تحطم غلاء المـهور**

**وتعس شباب عديم النُّهى*** على رجس عاداته لا يثـور**

فالشاعر يشير إلى تعسف التقاليد والعادات ووقوفها حائلا دون زواج الشباب، الأمر الذي سيؤدي حتما إلى الانحراف، ما لم يتمرد هؤلاء الشباب على تلك العادات، فالجزائر ستدخل في فوضى أخلاقية جيلا بعد جيل ما لم تحطم غلاء المهور، ولعمري لقد حدث ذلك الذي نهى عنه



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشاعر في بداية السبعينات، حيث ضربت كل أنواع الرذيلة اليوم أطنابها، جعلت البلد على شفا جرف هار.

وقد استثنى الشاعر بعض الشباب الأصيل الذي تأصلت في أعماقه التعاليم الإسلامية والأخلاق النبيلة، ولم تزعزعه رياح المفاسد، رغم قوتها يقول[17]:

**وأفلت من قفص الاتهام ***شباب أصيل، وفيٌّ الذمام**

**شباب تطهر فيه الضميرُ***فأعرض عن شبهات الطغام**

**وأُشرب من نبع إسلامه ***وفلسفة الدين، روح النظام**

**ولـم يتنكر لأمجاده ***وأجداده الخالدين العظام**

**ولا بالمذاهب يُغرى فتُشرى***ببخس عقيدته كالسوام**

**ولم تختطفه مـراهقة ***ثقافية ضل عنها الفطام**

إلى أن يقول:

**شباب عليه مناط الرجـا***فمنكم،.. ومني عليه السَّلام**

فما يحمله وراء هذا الوضع المزري الخطير الذي ما انفك ينخر أخلاقيات المجتمع الجزائري المسلم وتقاليده المستمدة من تعاليم الإسلام السمحة، وأصبح الحديث عن الفضيلة التي ديست والأخلاق التي ذهبت رمزا للبكاء عليها ومحل لوم لمجتمع لم يحترمها، يقول مفدي زكريا[18]:

**ويلتاه خذ يدي من وهادي ***هذه أدمعي وذاك فـؤادي**

**خليا ذكر سؤدد قد تقضى ***تحت طيات كل عصر تلاد**

**واشهدن مصرع الفضيلة ***تحت أقدام قارعات العوادي**

يقف الشاعر في نهاية الإلياذة وقفة إجلال أمام خالق الكون طامعا في التوبة وداعيا بإذنه للمغفرة وهو الغفور الرحيم، مما يؤكد عقيدة شاعرنا الدينية:

**فيا رب قد أغرقتني ذنوبي ***وأنت العليم بما في الغيوب**

**أتوب إليك بإلياذتي***عساهـا تكفر كل ذنوبي**

**عصيتك علما بأنك تعفو ***على المسرفين فهانت خطوبي**

ثم يردف قائلا :

**ولولا صفاتك: رب غفو***رٌ، رحيمٌ،لضاقت عليَّ دروبي**

**عصيتك لما خلقت الجما***ل، وهجت به نصبي ولغوبي**



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يختم الشاعر بقوله:

**فيارب، ما حيلتي في الهوى ***وفيك؟ إذا لم تكفِّر ذنوبي**

فهذا الاستغفار وهذه التوبة لا تصدر إلا من نفس تخاف مقام ربها يوم يبعث الناس، إنها صفة من الصفات الحديثة التي لبسها الشاعر مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية، مع أنه لم يتغزل بامرأة قط، ولم يصف أردافها أو نهديها أو خلوة معها في غلسٍ، لأن تغزله الوحيد في أشعاره أخلصه للجزائر فقط، لكن انجرافه وراء حبه له جعله يصفه بصفات رأى فيها انحرافا، كأبياته التي ذكر فيها سجوده للوطن والسجود لا يكون إلا لله، كوصفه الأمير عبد القادر بأوصاف الكمال والكمال لا يكون إلا لله، وغيرها من عبارات قمة في الروعة، اعتقد الشاعر أنه بها عصى الله تعالى، فعصيانه —من وجهة نظر الشاعر– كان نتيجة الجمال، أي جمال الوطن[*].

فالتشبث بالأخلاق الفاضلة كان أساس كل عمل ثوري كتب له النجاح، وفي ذلك يقول مفدي زكرياء[19]:

**شربت العقيدة حتى الثمالة***فأسلمت وجهي لرب الجلاله**

**ولولا الوفاء لإسلامنا***لما قرر الشعب يوما منالـه**

**ولولا استقامة أخلاقنا ***لما اخلص الشعب يوما نضاله**

**ولولا تحالف شعب وربّ *** لما حقق الرب يوما سؤاله**

وتلك حقيقة أخرى صرح بها الشاعر، فلولا النية في القصد واستقامة الشعب الجزائري بالرغم من محاولات فرنسا المستميتة في نوع هويته وانتمائه الإسلامي، لما أخلصوا في ثورتهم المجيدة، ولما هبوا هبة رجل واحد إلى الاستقلال، ثم انظر إلى الروية الصوفي الحاضرة في البيت الأخير وهي تحالف الشعب والرب في هذا الواجب، وكأن الإخلاص في النية جعلهم يرتفعون إلى الله فيجيب سؤالهم بعد انحلالهم الروحاني.

فتأثر شاعرنا بالقيم الأخلاقية الإسلامية كان إذن ضرورة حتمية للوضع الذي عاش فيه، حتى يستعد على أرضيتها لخوض المعركة الدينية النضالية من معناها الحقيقي بكل صدق ووفاء.

كانت البلاد المنطلق والمنتهى، فزرعت في قلب الشاعر حبا كبيرا وعشقا عظيما بما حملته من سلام إليه، وبما سكبت من جمال بروحه فأضاء الدرب واشتعلت الأنوار معلنة قصة الحب الأزلية، وجمال الأرض الذي هداه إلى خالقه فالله جميل يحب الجمال، والعبد إذا تذوقه أيقن عظمة المبدع وهاته إشارة إلى استشراقة صوفية تربط بين جمال الأرض، وعبادة الله وهكذا لا يزال الشاعر يصور



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصور الحالمات واللوحات المبدعات فيجعل من الجزائر عروسا للدنيا وجنة تشهد على عظمة الله في أرضه بما فيه من حنان وسماح وهناء وسمر[20]:

**جزائر أنت عروس الدنا*** و منك استمد الصباح السنا**

**و أنت الجنان الذي وعدوا ***و إن شغلونا بطيب المنا**

**و أنت الحنان و أنت السماح *** و أنت الطماح و أنت الهنا**

.هذه الأرض التي زينها الإسلام فزادها أبهى حلة، لها أن تتقدم وتواكب أعظم الدول، لأنها الأجمل ولأن أخلاقها لا تخرج عن تعاليم الإسلام، فنحن عرب، فينا كل ما أثر عنهم من شجاعة وولاء للوطن وتعصب له، والكرم والشرف والآباء، والترفع عن الفحشاء والعفو عند المقدرة، والوفاء بالعهد والصلابة في أخذ الثأر والدفاع عن المرأة، هي صفات أراد الشاعر إحياءها من جديد في المواطن الجزائري الذي نستطيع القول أنها قلت فيه تحت وطأت الاستعمار الفرنسي عامة فكانت أسبابا زادت من رفع روح الحماسة عند مفدي زكرياء نستشف ذلك من خلال هذه الأبيات وعلى غرارها[21]:

**وفخر الجزائر فيك تناهت ***مكارم، عرب، وأمجاد فرس**

**وأحفاد أول من ركزوا ***سيادة أرض الجزائر أمسى**

**وعرق الأصالة طهّر طبعي***ونور الهداية أذهب رجسي**

**وكرمت، باسم المفاخر، قومي ***وشرفت باسم الجزائر جنسي**

**إذا للكريهة نادى المنادي***بذلت حياتي، وودّعت أنسي**

**وإن للسخاء استجاب كريم***ففي الجود لقنت أروع درس**

**وإن شيدوا للبقاء والخلود *** جعلت وفائي دعامة أنس**

مفدي زكرياء مولع بانتمائه، مفتون بأخلاقه، مؤمن برسالته مجتهد في دعوته الصادقة التي تنم عن شعور نبيل يكاد يختفي في كل شخص وهو الإخلاص في حب الوطن.

مفدي زكريا خالد ما خلدت ثورة المليون والنصف المليون شهيد، خالد في نشيده الرسمي الذي تحفظه ذاكرة الشيوخ، وشفاه الأطفال نشيدا كتبه بدم ذراعه اليمنى على جدران بربروس، ليقرأه الغفلان على مر الدهور والأزمان.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلك الأبيات التي وجدت في لغة الشاعر وعاء لها، لغة تميز بها عن سواه من الشعراء بما حملت من جرس وإيقاع رتيب حتى أنك لتعرف أبياته من أول شطر حيث ساغ الشاعر مفدي زكريا أشعاره مصورا حالما محمسا واعظا و مذكرا،متجولا في ربوع الوطن الحبيب وزاده في كل هذا الورقة والقلم، وقاموسا لغويا لم يحوه أي معجم لغوي، لأنه وليد الحاجة.

فاللغة هي المادة الخام التي يستقي منها الشعراء و الأدباء مادتهم الأولية في صناعتهم ولأن الأدب هو تعبير عن المجتمع كما هو حال الإلياذة، فلن يتأتى ذلك إلا باللغة التي هي أداة التعبير وإخراج مكامن الذات،من أحاسيس ومشاعر"و ما دام الأدب تعبير عن الحياة أداته اللغة، و اللُّغة هي الظاهرة الأولى التي ينبغي الوقوف عندها، عندما نتحدث عن الأدب لأن الأدب لا يمكن أن يتحقق إلا فيهما"[22]، تتلك الغة التي أظهرت لنا سبقا خوف الشاعر من التحولات التي انجرف معها الشباب الجزائري بعد الاستقلال، وأظهرت لنا ولعه بتعاليم الإسلام والحث على التمسك به، حتى إننا ألفينا بعض ألفاظه حادة قاطعة كحد السيف.

و اللغة إذا هي الأساس في الصناعة الأدبية لأنها مادة التشكيل و كل المعاني بحاجة إلى لغة و كل لغة بحاجة إلى معاني فهاته تكمل تلك و تلك تكمل هاته. والأديب في تعامله مع اللغة يعطيها حركية تنموية، تحركها و تنميها فتصبح اللغة في حد ذاتها كائن متوالد ينمو و يكبر و يتكاثر عدده.

و اللغة هي أداة التعبير، والوسيلة التي تؤدي المعنى فمن خلال اللفظة المستعملة يحدث الانفعال ،فهناك ألفاظ الفرح، ألفاظ الحزن، ألفاظ النجاح، ألفاظ الفشل وهناك سيل جارف من الألفاظ كل بمعنى"أن يستخدم لغة الغضب في الإغاثة ولهجة الضجر والرصانة من الحديث عن القبح والفجور، ولغة الحماسة عند المجد، ولغة الخشوع في التقوى"[23] وكل لغة لها دلالاتها ومدلولاتها، تلك اللغة التي اختلفت عند مفدي زكريا بين اللَّهب المقدَّس والإلياذة، فتفجرت



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحاسيس الثورة والمقاومة في الأوّل، والخوف من سلوك الطريق الخطأ أثناء البناء والتشييد في الثاني.

فالمتأمل للغة مفدي زكريا في اللهب المقدس، سيجد ما لايجده في الإلياذة، وهو يعترف بذلك، حين يقول[24]:

**وقالوا: انحرفت بإلياذة*** تلوم الشباب ومثلك يعلو**

**هوميروس أرّخ ..لم ينتقد***وشهامة الفرس بالوصف تغلو**

**فقلت:وشعر الخرافات يفنى***وشعر البطولات لا يضمحلُّ**

ما أحب عربي ولا أجنبي بلده كما أحب مفدي زكريا الجزائر وما كتب سطرا من الشعر في حب الوطن كما كتب مفدي زكريا أسطرا في حب الجزائر، ذل به المغتصب وشغف به المحب وقرب منه البعيد وأبعد عنه اللئيم وأشفى به السقيم وأغنى به الكريم، إنه أحب الجزائر فعشقها ومدحها فغازلها، وهام في حبها فانبهر بها، وأجاد مدحها فانبهرت به، مفدي زكريا هو الجزائر والجزائر هي مفدي زكريا، كيف لا وقد أرضى ضميره عندما رضت الجزائر فهو يقول: "وعسى أن أكون بهذا قد أرضيت ضميري، وثورة بلادي، وعروبتي، وأهبت- لنجدة ثورة العرب في الجزائر- بكل من تيقظ فيه ضمير".

**هوامش البحث:**

[1]- أدب الحرب، نجاح عطّار، ص: 12-13.

[2]- مفدي زكريا شلعر مجد وثورة، بلقاسم بن عبد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية، 1990، ص:149.

[3]- المرجع السابق، ص153-154.

* هذا الأمر لمسته شخصيا عندما زرنا بيته أيام الملتقى الوطني حول شخصه سنة 2005، حيث امتنعت ابنته وحفيدته أيضا عن أخذ صورة تذكارية معنا وقلن لنا خذوا صورا لكم في كل أرجاء البيت لكن دوننا، وقد كنا أستاذات جميعنا، وأما عن حفاوة الاستقبال فيعجز قلمي عن وصفها.

[4]- من كتاب: شعر مفدي زكريا (دراسة وتقويم)، لحوّاس برّي، ديوان المطبوعات الجامعّية، الجزائر، 1994، ص: 214.

[5]- تطور الشّعر الجزائري منذ 1945 حتى 1980، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 23.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[6]- إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، دت، ص: 90.

[7]- المصدر نفسه، ص : 90.

[8]- شعر مفدي زكريا، ص: 90.

[9]- الإلياذة، ص : 104.

[10]- المصدر نفسه، ص: 106.

[11]- نفسه، ص: 107.

12- نفسه، ص 96.

* يتم إجبار الطلبة على تبني بعض الأفكار عن طريق النقطة ، والنجاح في المقياس، وهو الأمر الذي بات شائعا داخل الحرم الجامعي في عموم الجامعات الجزائرية.

[13]- المصدر نفسه، ص97

[14]- نفسه ص98.

[15]- نفسه، ص: 99.

[16]- نفسه، ص : 108.

[17]- نفسه، ص109.

[18]- نفسه ، ص: 47.

** *- استحضرت هنا بيتا شعريا لا أذكر قائله:

ربِّ خلقت الجمال وقلت اتَّقو***وكيف نرى الجمال ولا نعشق

[19]- الإلياذة، ص : 89..

[20]- المصدر نفسه ص6.

[21]- اللهب المقدس " مفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1991، ص: 4.

[22]- شعر مفدي زكريا دراسة و تقويم" حواس بري ،324.

[23]- النقد الأدبي الحديث" محمد غنيمي هلال،مطبعة الفجالة، القاهرة،د ط،د ت،ص118.

24-الإلياذة ص 117.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com